الزهراء

ج ٢ : م ١ | القاهرة | ١٥ صفر ١٣٤٣

القومية عند العرب

لغة الامة دليل نفسيتها — القومية العربية جسم حي — الصلة بين أعضاء هذا الجسم العرب كلهم شيء واحد — العرب وملوكهم الاعاجم — نحن ولغتنا اليوم

﴿ لغة الامة دليل نفسيتها ﴾

يرى المشتغلون بالقانون أن مجموعة القوانين في أمة من الامم مرآة أخلاقها ، وترجمان سجاياها . لانه ما من مادة وضعت في قانون حكيم الا لحاجة أخلاقية عامة دعت الى وضع تلك المادة فيه . وهذه القضية صحيحة لو لا أن آفة التقنين التقليدُ ولاسيما في الشرق لعهدنا هذا ؛ لأن الدولة وهي في دور ضعفها لا تستمدُّ قانونها من نفسيتها ، ولا من الاحكام التي أنِسَتْ بها عصوراً طوالا ؛ بل تترجمه من لغة دولة أقوى منها ، مكتفيةً بما تدخله عليه من تعديل ظاهري . هذا اذا كانت الدولة الضعيفة مطلقة اليد في سن قوانينها ، وأما التي تتصرف فيها يد الاستعمار فقوانينها أكذب دليل عليها

ويرى آخرون أن جداول الاحصاء أصدق من القوانين دلالةً على مستوى

الامة الاجتماعي ، لأن الاحصاء تاريخ ساكن والتاريخ احصاء متحرك ، كما قال شلوزر . وهذه القضية صحيحة أيضاً لو كانت أرقام تلك الجداول تُجمع دائماً بطريقة من الحصر والاستقراء تطمئن اليها النفس ؛ وهو مطلب عسير في كثير من الامم ، وأكثر منها عدداً الامم التي ليس فيها إحصاءٌ قط

ونحن مع القائلين بان لغة الامة دليل نفسيتها ، وصورة عقليتها ؛ بل هي أسارير الوجه في كيانها الاجتماعي الحاضر ، وفي تطورها التاريخي الغابر . لأن وراء كل لفظة في المعجم معنى شعرت به الامة شعوراً عاماً دعاها الى الإعراب عنه بلفظ خاص ، فوقع ذلك اللفظ من نفوس جمهورها موقع الرضى ، وكان بذلك من أهل الحياة . وما معجم اللغة الا مجموعة للمعاني التي احتاجت الامة الى التعبير عنها فاختارت لكل معنى منها لفظاً يدل على الجهة التي نظرت الامة منها الى ذلك المعنى عند ما سمته باللفظ الذي اصطلحت عليه . فلغة الامة تتضمن تاريخ أساليب التفكير عندها ، من ابسط حالاته الى أرقاها ؛ يعلم ذلك البصير في أبنية اللغة وتلازمها ، ومن له ذوق دقيق في ترتيب تسلسلها الاشتقاقي

﴿ القومية عند العرب جسمٌ حيّ ﴾

لا أحسبني مُحْدِثاً في لغة العرب وتاريخها بدعة اذا قلت ان للعرب قومية نامية نماء الكائنات العضوية ؛ فالعرب تمثلوا في قوميتهم معنى الجسم الحيّ النامي منذ أقدم العصور ، بل منذ نطقوا بلغتهم هذه ذات الاسرار العجيبة التي تشرّفنا بوراثتها عنهم

تنقسم القومية العربية عند اهلها الى شعوب ، والشعوب الى قبائل ، والقبائل الى عمائر ، وبعد العمائر البطون ، وتحت البطون الأفخاذ ، تليها الفصائل

أما الشَّعب فمأخوذ من شَعَب الرأس وهو شأنه الذي يضم قبائله كما في

الصحاح (مادة شعب) قال : وفي الرأس أربع قبائل . والشأن واحد الشئون وهي مواصل قبائل الرأس وملتقاها ومنها تجيء الدموع

وأما القبيلة فهي في الأصل العظام المشعوب بعضها الى بعض الى أن تصل بينها الشئون المتقدّم ذكرها . قال الجوهري (مادة قبل) وبها سميت قبائل العرب

وأما العمارة فهي من الانسان الصدر . قال الزبيدي في تاج العروس (مادة عمر) : سمي الحي العظيم عمارة بعمارة الصدر وجمعها عمائر

والجماعة من العرب التي تسمى بطناً هي دون العمارة وقد سميت بطناً لأنه دون الصدر

وكذلك الحال في الجماعة التي يطلق عليها اسم الفخذ

والفصيلة رهط الرجل الأدنون . قال الزبيدي في التاج : وهي بمنزلة المفصل من القدم . ونقل ابن الأثير في النهاية عن الهروي أن أصل الفصيلة قطعة من لحم الفخذ

قال القلقشندي في صبح الأعشى (١ : ٣٠٩) : وربما عبروا عن كل من الطبقات الست بالحيّ

وقال ابن عبد ربه في العقد الفريد (٢ : ٥٦ بولاق) : وقيل للجماجم جماجم لأنها يتفرّع من كل واحدة منها قبائل اكتنفت بأسمائها دون الانتساب اليها فصارت كأنها جسد قائم وكل عضو منها مكتنفٌ باسمه معروفٌ بموضعه

ويقولون (الاشلاء) لبقايا القبيلة التي انحلت جامعتها وتفرّقت في غيرها ، أخذوها من الشلو وهو العضو من أعضاء اللحم . وفي الصحاح أشلاء الانسان أعضاؤه بعد البِلى والتفرق

قال ابن رشيق في العمدة (٢ : ١٥٤) : وزعم أبو أسامة ـ فيما رأيتُ بخطه

وقد عاصرته وكان علاَّمة باللغة ـ ان هـذه الطبقات على تأليف خَلق الانسان الأرفع فالأرفع : فالشعب أعظمها مشتق من شعب الرأس ، ثم القبيلة من قبيلته ، ثم العمارة . قال : والعمارة الصدر ، ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم الفصيلة . قال : وهي الساق أو قال المفصل ـ الشك مني أنا ـ قال : والحي أعظم من الجميع لاشتمال هذا الاسم على جملة الانسان

قلت : وقد صنَّف العرب في هذا المعنى ، ولعبد الله بن محمد بن محمد الصغير رسالة فيه تقع في بضع صفحات في مجموع رقم ٣٣٢ من كتب اللغة في الخزانة التيمورية

﴿ الصِّلة بين أعضاء هذا الجسم ﴾

كانت العرب في كل أدوار التاريخ تعتزّ بوحدتها القومية فتغتبط أعضاؤها الاجتماعية بالخير يصيبه عضوٌ منها أو مجموعُها ، وتجزع للشرّ يصيب عضواً منها أو مجموعَها

ومن أمثلة ذلك أن اليمانيين لما قاموا بقيادة سيف بن ذي يزن لاخراج الحبشة من وطنهم ـ مستعينين على ذلك بالفُرْس بعد يأسهم من عون الروم ـ فانتصر ابن ذي يزن عليهم وردّ الى ذلك الجزء الكبير من بلاد العرب حرّيته واستقلاله ؛ رأى العرب أن لهم نصيباً من هذا النصر الذي ساقه الله الى بني قومهم اليمانيين ، فأتت وفود عدنان تهنيء مَلِكَ قحطان . وقد روى الحافظ ابن عساكر (١ : ٣٦١) عن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ان فيمن أتاه من الوفود وفدَ قريش وفيهم عبد المطلب بن هاشم ، وأمية بن عبد شمس ، وعبد الله بن جُدعان ، وخويلد بن أسد ، ووهب بن عبد مناف بن زهرة في ناس من وجوه قريش ؛ فقدموا عليه صنعاء فاذا هو في رأس (نُعمدان) . قال مؤرخو العرب وخطب عبد المطلب

ابن هاشم فكان فيما قاله لابن ذي يزن :

« أنت ـ أبَيْتَ اللعن ـ ملك العرب وربيعها الذي تخصب به البلاد ، ورأسها الذي له تنقاد ، وعمودها الذي عليه العماد ، ومعقلها الذي تلجأ اليه العباد . سلفك خير سلف ، وأنت لنا منهم خير خلف . ولن يُهلك الله من أنت خلفه ، ولن يخمل ذكر من أنت سلفه »

وقال له أبو أمية بن أبي الصلت أحد رجال ثقيف :

اشرب هنيئاً عليك التاجُ مرتفقاً في رأس (غمدان) داراً منك محلالا
واشرب هنيئاً فقد شالت نعامتهم وأسبل اليوم في برديك اسبالا

ولما سئم عرب العراق تسلط الفرس على أطراف بلادهم ، ومحاولتهم النيل من حريتهم واستقلالهم ؛ انتهزوا فرصة تضافروا فيها مع هاني، بن مسعود في يوم ذي قار على الفرس واستظهروا عليهم ، فقال في ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ ولم يكن أوتي النبوّة بعدُ ـ :

« اليومَ انتصفتِ العربُ من العجم »

وظل العرب بعد الاسلام ينظرون الى هذه الواقعة كنظرهم اليها في زمن حدوثها . وفيها يقول أبو تمام حبيب بن أوس :

أُلاكَ بنو الافضال لولا فعالهم دَرَجْنَ فلم يوجد لمكرُمة عقبُ
لهم يومُ ذي قار مضى وهو مفرد وحيدٌ من الأشباه ليس له صحبُ
به علمت صهبُ الأعاجم أنه به أعربت عن ذات أنفسها العربُ
هو المشهد الفرد الذي ما نجا به لكسرى بن كسرى لأسنام ولا صلبُ

وقال حبيب أيضاً :

اذا افتخرت يوماً تميم بقوسها وزادت على ما وطّدت من مناقب

فأنتم بذي قار أمالت سيوفكم عروشَ الذين استرهنوا قوس حاجب (١)

﴿ العرب كلهم شيء واحد ﴾

ان وحدة الناطقين بالضاد قضية معروفة عند العرب من عهد عهيد . ومن شواهد ذلك ما رواه أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في البيان والتبيين (٣ : ١٤٥) من أن الخواصّ الخلص من النزارية يرون ان اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام بعث نبياً مصلحاً للعرب كلها ، غير مختص بالحجاز وأهلها . فان هؤلاء الخواص من النزاريين قالوا : « ان العرب كلهم شيء واحد ، لأن الدار والجزيرة واحدة ، والأخلاق والشيم واحدة ، وبينهم من التصاهر والتشابك والاتفاق في الأخلاق وفي الاعراق ـ من جهة الخُئولة المردَّدة ، والعمومة المشتبكة ـ ثم المناسبة التي بنيت على غريزة التربة ، وطباع الهواء والماء . فهم من ذلك شيء واحد : في الطبيعة ، واللغة ، والشمائل ، والمراعي ، والرأية ، والصناعة ، والشهوة . فاذا بعث الله عزّ وجل نبياً من العرب فقد بعثه الى جميع العرب ، وكلهم قومه . ولأنهم جميعاً يدٌ على العجم ، وعلى من حاربهم من الأمم ؛ لأن تناكحهم لا يعدوهم ، وتصاهرهم مقصور عليهم . قالوا : والمشاكلة من جهة الاتفاق في الطبيعة والعادة

---

(١) يشير ابو تمام رحمه الله الى حادثة تاريخية ، وهي أن حاجب بن زرارة التميمي وفد على كسرى في سنة جدب ، فشكا اليه محل الحجاز عامئذ ، وطلب منه حمل الف بعير برّاً على أن يعيد اليه قيمتها . فقال له كسرى :

— وما ترهنني على ذلك ؟

قال حاجب : ـ أرهنك قوسي !

فاستعظم كسرى همة حاجب بن زرارة وقال :

— قبلت !

وأعطاه حمل ألف بعير برّاً . ومات حاجب فأحضر بنوه المال بعد موته ، وطلبوا من كسرى قوس ابيهم . فافتخرت تميم بذلك ، وأشار أبو تمام ببيتيه الى هذه المفخرة

ربما كانت أوغل من المشاكلة من جهة الرحم . نعم ، حتى تراه أغلب عليه من أخيه لأمه وأبيه ، وربما كانت أشبه به خَلقاً وخُلقاً ، وأدباً ومذهباً »

﴿ العرب وملوكهم الأعاجم ﴾

رأى القراء فيما نقلناه في العدد الماضي من أقوال الدكتور دوزي انه لم يرث أحد على سطح الغبراء نصيباً أوفر من نصيب العربيّ في الحرية ، ولا قسطاً أعظم من قسطه ؛ حتى أن عدم اقراره بالعبودية لأحد غير الله في كلمة « لا إله إلا الله » دليل تمسكه الشديد بحرّيته وعضه عليها بالنواجذ . ونحن اذا نظرنا الى الأمة العربية وبلادها نظرة تاريخية وجغرافية نرى أنها أقل بلاد الله خضوعاً للغريب واخلاداً الى حكمه . وانها ـ سواء كانت بدوية أو حضرية ، وجاهلة أو مهذبة ، ومتوسطة في موقعها أو متطرّفة ـ لم تتنازل قطّ عن حريتها ، واذا اضطرت الى ذلك حيناً من الدهر تبيت الليالي والشهور والسنين تتحيّن الفرص للخلاص . وقد مضى في أثناء هذا المقال حديث قيام اليمانيين لاخراج الحبشة من أرضهم ، وهبوب العراقيين للانتصاف من جيرانهم الذين انتقصوا من حريتهم ؛ وما برحت الليالي في الشرق العربي حُبالى ، وليس بعيداً أن يلدن العجائب

يقول الدكتور غُستاف لوبون في فصل « سر عظمة العرب » من كتابه عن حضارتنا : « ليس التاريخ الا رواية الأحداث والأفعال التي قام بها الناس سعياً وراء المطمح ، ولولا هذا لظلّ الانسان على بربريته ، ولما كان له من المدنية نصيب . وان انحطاط الأمة يبتديء يوم لا يكون للأمة مطمح تحترمه بجملتها فيدافع كل فرد منها بنفسه في سبيل حمايته والذّود عنه »

ونحن اذا تتبعنا تاريخ العرب في جميع الأدوار ، وراقبنا خُلقهم السياسيّ العام ، لنتبين مطمحهم القومي الثابت بعد انتقالهم من حياة القبيلة الى حياة الدولة ،

نجدهم ظلوا متمسكين بأهداب الحرية للفرد ، فهي أثمن ذخائرهم وأعزُّها عليهم ؛ وفي تاريخهم من شواهد ذلك العجب العجاب . أما نظرهم الى الدولة فكان وليدَ رأيهم القديم في القبيلة ؛ وقد علمنا مما كتبه الدكتور دوزي أن إمارة القبيلة لم تكن الامر المهم في حياة العرب الاجتماعية بل أعباء الإمارة هي الأمر ذو البال.

لذلك رأينا الأمة العربية ـ بعد غلطة العباسيين الكبرى في اصطناع الموالي وتقليدهم زمام أمر الدولة ـ قد أرضاها بعضَ الرضى سلوكُ مَن ملك البلاد من الأعاجم مسلك الدول العربية في اتخاذ لغة القرآن لغة رسمية للدولة ؛ فلا آل بويه ، ولا آل سلجوق ، ولا بنو أيوب ، ولا حكومات المماليك والطوائف ، ولا أي ملك من ملوك الأعاجم في البلاد العربية حدّثوا أنفسهم باضطهاد لغة العرب وآدابها ، بل ان كثيرين منهم كانوا حاملي لوائها ومؤيدي علومها . وكل من حكم بلاد العرب من الملوك الأعاجم انما وصل الى مراتب الحكم لدخوله في دين الاسلام ومواصلته خدمة حضارته . وقد ظهر من بينهم ملوك أتقياء عقلاء عادلون ـ مثل نور الدين وصلاح الدين ـ كانت الأمة تطمئن اليهم وتمتلىء قلوب أفرادها حباً لهم وثقة بفضائلهم وتقواهم ، فكانت سيرتهم الطيبة في الأمة بلسماً لجراحها السياسية ، ومسكّناً لآلامها القومية والوطنية ، في ظروف حرجة كانت تنتابها بين حين وآخر : كالحروب الصليبية ، والغارات التترية وما الى ذلك

وأنت ترى مما تقدم أن الناطقين بالضاد كانوا يرمون في مطمحهم السياسي الى أمرين اثنين : حرية الفرد ، واستقلال الدولة ذات الحضارة العربية . وكلا الأمرين توارثوا جرثومتهما عن حياتهم الأولى في القبيلة . وكلاهما كانا متوفرين في الدول التي كانت العربية لسانها الرسميّ ، فكان الشعب لا يشعر بشيء من التغيير في حياته السياسية غير الأصل الذي ينتمي اليه الحاكم الأعجمي ، وكثيراً ما ينسى الشعب ذلك اذا نظر الى تأدُّب حاكمه بالأدب العربي ، وممالأته لسلسلة

الحضارة الاسلامية، ومدافعته الاغيارَ عن البيضة ؛ ان استقرار حال الدولة في هذه الأمور أو أكثرها مدة ملوك الأعاجم على ما كانت عليه الحال زمن الدولة العربية لماجعل الناطقين بالضاد في غير ما وجلٍ على مطمحهم القومي القائم على حرية الفرد واستقلال الدولة . واننا لا نعدو الصواب اذا قلنا ان دولة آل عثمان نفسها التي اتخذت لغة الترك رسمية في الدولة الاسلامية من دون لغة القرآن لم تتمسك بذلك الا في الانضول والقسطنطينية والبلاد الواقعة في غربها ، وأما في بلاد العرب فقد ظلت الاحكام بالعربية الى أواخر القرن الثالث عشر الهجري ، ويوم أسست مدارسها الرسمية في ديار الشام من أقصى حلب شمالاً الى أقصى فلسطين جنوباً (سنة ١٢٩٦هـ) كانت لغة التعليم في هذه المدارس عربية ، ولا تزال الكتب المدرسية التي ألفت بالعربية لطلاب تلك المدارس موجودة معروفة . فلما عزمت الدولة نهائياً على صبغ البلاد العربية بالصبغة التركية المحضة كان ذلك اليوم بداية عهد غير حميد ، وقد شاهدنا عواقبه مشاهدة المعاصر لحوادث عصره فلا حاجة الى بسطها

﴿ نحن ولغتنا اليوم ﴾

قلتُ في صدر هذا المقال إن لغة امة من الامم هي المرآة التي تنطبع فيها صورتها الحقيقية . وما عليك إذا أردتَ أن تتأكد صحةَ هذه القضية ـ أو اذا صدَّقتها وأردتَ ان تعرف حقيقة الناطقين بالضاد من النظر في لغتهم باعتبار انها مرآتهم ـ إلاّ ان تقف تُجاه المعجم العربي وقفةَ مفكِّر معتبر

إن هذه الوقفة لتوحي الى صاحبها من المعاني ما يستحقُّ ان نُفرِدَ له مقالاً مستقلاً ، بل هو من الاهمية بالمنزلة التي تستحقُّ من علمائنا عناية أخرى غير تحبير المقالات

الشعوب العربية الحاضرة تشبه المعجم العربيّ من كل الوجوه : ففي معجمنا المادة الغزيرة الفياضة التي تحسدنا عليها أمم كثيرة ؛ ولكن هذه المادة تحتاج الى تنظيم علمي تتسلسل فيه مشتقات الكلمة الواحدة تسلسلاً تاريخياً ـ بقدر الامكان ـ يراعى فيه تقديم الاصول على ما تفرّع منها ؛ ثم ان هذه الاصول والفروع تحتاج الى تحديد دقيق يستعان فيه بما تفرّق في غير المعاجم من أقوال علماء اللغة ، وتحتاج بعد ذلك الى التخصيص الذي تقتضيه حاجة العصر ، يتولاه مجمع علمي مسموع الكلمة لا يتردد الكاتبون في النزول على حكمه ؛ وتحتاج أيضاً الى أن يكون مؤلفو المعاجم ذوى كفاءة تامة في اختيار مادة كل معجم بالترجيح الذي يقتضيه حجم المعجم : الأهمّ فالاهم ، لان من عيوب معاجمنا أن نجد في أحدها الكلمة الحوشية التي قد لا يحتاج اليها المطالع مرة في السنة وتهمل الكلمة التي تمس حاجة الناس الى مراجعتها في كل وقت

ان لغتنا مثل امتنا لغة استقلالية ربما كانت أغنى من كل لغة اخرى عن الاحتياج الى غيرها ، ولكنها مع غنائها هذا العجيب قد خذلها علماؤها اليوم فلم يكوّنوا لانفسهم مجمعا جدّياً يكون المرجعَ الاعلى لامثاله في كل قطر عربي ، ويكون فيه العلماء الاخصائيون الذين بنوا علمهم على الاسس المتينة التي وضعها لنا أئمة هذه اللغة من عهد الخليل وسيبويه الى يومنا هذا

فاللغة العربية ـ كالقومية العربية ـ أصيلة وغنية وقوية بطبعها ، ومصابة بالتشتت والاهمال والفوضى والتخاذل في حالتها الراهنة ؛ فهل لها من رجالها الابناء البررة ، الذين يسلكون للاصلاح طريقه ، ويدخلون اليه من بابه ؟

أظن انه قد آن الأوان للنهوض من نومة طال علينا ليلها ، والله الهادي